

خطوة أولى لسوريا
جيمي كارتر: خطوة أولى لسوريا؟ أوقفوا الاقتتال
يمكن إنقاذ وقف إطلاق النار إذا اجتمع كافة الفرقاء حول هدف بسيط.

يُعتبر اتفاق وقف إطلاق النار الجديد الذي تم الإعلان عنه هذا الشهر في سوريا خبراً ساراً، إلا أن غياب الثقة بين الأطراف السورية المتنازعة والجهات الخارجية الداعمة لها يعني أن هذا الاتفاق سيكون عرضة للانهياب تماماً كسابقه. وبالفعل بدأ وقف إطلاق النار ينازع بشكل ملحوظ حيث قامت الولايات المتحدة في عطلة نهاية الأسبوع وعن طريق الخطأ بقصف قوات تابعة للحكومة السورية. ويوم الإثنين، أعلن الجيش السوري أنه لن يلتزم باتفاق وقف إطلاق النار بعد الآن، واستأنف الضربات الجوية على حلب، حتى أنه أقدم على قصف قافلة للمساعدات الإنسانية.

رغم ذلك، لا يزال هناك أمل. إذا كانت الولايات المتحدة وروسيا مستعدين للوصول إلى هذه المرحلة في المفاوضات الجارية بينهما للتوصل إلى اتفاق، ما زال بالإمكان تخطي هذه الانتكاسات. وإن استهدفت قافلة المساعدات الإنسانية بالقصف وهو يُعتبر جريمة حرب، يجب أن يشكل حافزاً إضافياً لكل من الولايات المتحدة وروسيا لتجديد التزامهما بوقف إطلاق النار. والجدير ذكره أن كلاهما كان مدركاً للصعوبات التي قد تعترض وقف إطلاق النار حيث استغرق التفاوض على شروطه أكثر من شهر من المحادثات.

ما زال بالإمكان إنقاذ وقف إطلاق النار في حال أجمعت جميع الأطراف على هدف بسيط وبالغ الأهمية ألا وهو وقف القتل. قد يبدو هذه الهدف أكثر احتمالاً مما يبدو عليه.

وفقاً لمصادر موثوقة، يصل عدد السوريين الذي سقطوا حتى اليوم إلى حوالي 500 ألفاً، بينما أصيب مليونان بجروح. أكثر من نصف السكان الذين كان عددهم قبل الحرب قد وصل إلى 22 مليون أصبحوا اليوم من النازحين. هذه الأرقام وحدها كفيلة بإقناع جميع الفرقاء بأن الحرب بحد ذاتها هي انتهاك لحقوق الإنسان والعدو الأكبر لسوريا.

ولكي يستمر وقف إطلاق النار الحالي، ينبغي على الولايات المتحدة وروسيا أن تتخطيا انعدام الثقة الذي أدى إلى انهيار وقف إطلاق النار في شباط/فبراير حيث بدأ انهيار وقف الأعمال العدائية الذي أُعلن في كافة أنحاء سوريا بالانهيار في غضون شهرين بسبب استمرار المعارك في ريف دمشق ووسط وشمال سوريا وحلب. وأسفر استئناف القتال في شهر أبريل/نيسان عن تعليق محادثات السلام الجارية في جنيف برعاية الأمم المتحدة.

وتجدر الإشارة إلى أن مجهوداً كبيراً تم بذله في وقت سابق خلال هذا العام عندما ضغطت الولايات المتحدة وروسيا على حلفائهما بهدف وقف القتال وإعطاء المفاوضات فرصة لكي تنجح. ولكن الآمال الأميركية والروسية في التوصل إلى اتفاق حول مسائل ذات صلة بالحكم الانتقالي بحلول مطلع آب/أغسطس لم تكن واقعية على الإطلاق. فبعد خمس سنوات من الحرب وفي غياب أي شكل من أشكال الثقة بين الأطراف المتنازعة، اعتبر البعض أن دفع الأطراف السوريين وداعميهم إلى الاتفاق حول ترتيب لتشارك السلطة يثير التخوفات، في حين رأى البعض الآخر أنه غير مناسب. وبالفعل، هذا ما دفعهم إلى الانزلاق في العنف مجدداً.

عندما تُستأنف المحادثات في جنيف هذا الشهر، يجب أن يكون التركيز على وقف سفك الدماء أولاً مع تأجيل الحديث عن أي من المسائل ذات الصلة بالحكم إلى مرحلة لاحقة، منها مثلاً متى يتنحى الرئيس بشار الأسد وأي آلية يمكن اعتمادها لاستبداله.

يمكن للمساعي الجديدة أن تجمد بشكل مؤقت السيطرة على الأراضي القائمة حالياً دون أن تتخلى الحكومة أو المعارضة أو الأفراد عن إمكانياتهم العسكرية. كما يمكن الاتفاق على إجراءات من أجل تثبيت الأوضاع في الأراضي الخاضعة لسيطرة هذه الأطراف المتنازعة مع ضمانات بالسماح بوصول المساعدات الإنسانية وهو مطلب مهم بعد قصف قافلة المساعدات الإنسانية قرب حلب.

طبعاً لا تخلو هذه المقاربة من التحديات لا سيما وأن القوى الأجنبية لا تبالي بدمار سوريا بقدر ما تهتم بمصالحها الخاصة ولا ترغب في بقاء خطوط المواجهة حيث هي فهناك المصلحة الروسية في الحصول على مرفأ على المتوسط، ومصصلحة إيران في الحفاظ على صلة وصل بحزب الله اللبناني، ومصصلحة تركيا في قمع التطلعات الكردية، ومصصلحة السعودية في منع إيران من الحصول على موطئ قدم لها في العالم العربي. وقد بدأت هذه المصالح بتقويض وقف إطلاق النار الهش أساساً.

يسمح وقف هدر الدماء وتجميد الوضع الراهن بتغيير اللعبة من رابح خاسر إلى لا خاسر. فهكذا لا يكون أي طرف من أطراف النزاع قد تخلى عن أي من مصالحه الحيوية ولا يتم استعجال أي منهم إلى التعاون وتقديم التنازلات في وقت يصل مستوى ثقتهم ببعضهم البعض وبالمجتمع الدولي إلى أدنى مستوياته.

في ظل هذه الظروف قد يعتبر كل من الحكومة السورية والمتمردين أن أي تنازل أو مساومة بمثابة خيانة. إلا أن عدم الخسارة ووقف القتال قد يكونان اقتراحاً جذاباً أو على الأقل سيكون من الصعب رفضه.

من البديهي أن هذه الخطوات لا تنطبق على المناطق السورية الخاضعة لسيطرة داعش وغيرها من المنظمات المصنفة إرهابية من الأمم المتحدة. ولكن إذا توقف القتال في الأجزاء غير الخاضعة لسيطرة هذه المجموعات، قد يشعر المحاربون في صفوفها بإغراء التخلي عن تلك التنظيمات والانتقال إلى مناطق تتوفر فيها ظروف معيشة أفضل. وقد يشكل هذا الأمر نقطة تحول في الجهود الهادفة إلى إلحاق الهزيمة بهذه التنظيمات الإرهابية.

القيادة الأميركية الروسية هي مفتاح النجاح لهذه المقاربة. على كل من أميركا وروسيا إقناع حلفائه الإقليميين وحثهم على التعاون. ولكن هذا وحده لن يكفي. على السوريين أيضاً أن يتمكنوا من إسماع صوتهم بشكلٍ مدوٍ وصريح: "أوقفوا سفك الدماء". على مدى السنوات الخمس الماضية، احتشد الكثير من السوريين للعمل مع منظمات المجتمع المدني في مجال المساعدات الإنسانية وحقوق الإنسان ومبادرات بناء السلام. هؤلاء أيضاً يجب أن يصرخوا بملء الصوت قائلين: "أوقفوا هدر الدماء". وعلى المؤسسات الدولية أن تدعم إيصال هذه الصرخة أيضاً.

كلما علت الأصوات المطالبة بوقف القتال، أُجبرت الأطراف السورية المتنازعة والأطراف الإقليمية والدولية على الإصغاء والتحرك. وعندما يتوقف الاقتتال يمكن للسوريين العمل على استعادة كرامتهم الضائعة ما سيكون نقطة انطلاق لمعالجة المسائل التي كانت وراء إشعال فتيل الحرب في البداية.

جيمي كارتر هو الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة ومؤسس كارتر سنتر.